

أفريقية بيضاء أفريقية خلاسية

من نشوة الخيانة إلى دمار العالم: أدب نسوي أفريقي بالإنكليزية



هالة صلاح الدين

”

تبرز كتابات النيجيرية أدا أوديتشوكو المولودة لأب أفريقي وأم أميركية بيضاء وعياً عميقاً بإرث متعدد الثقافات وولاء لتقاليد الإيبو وإحساسها بدهويتها الأميركية

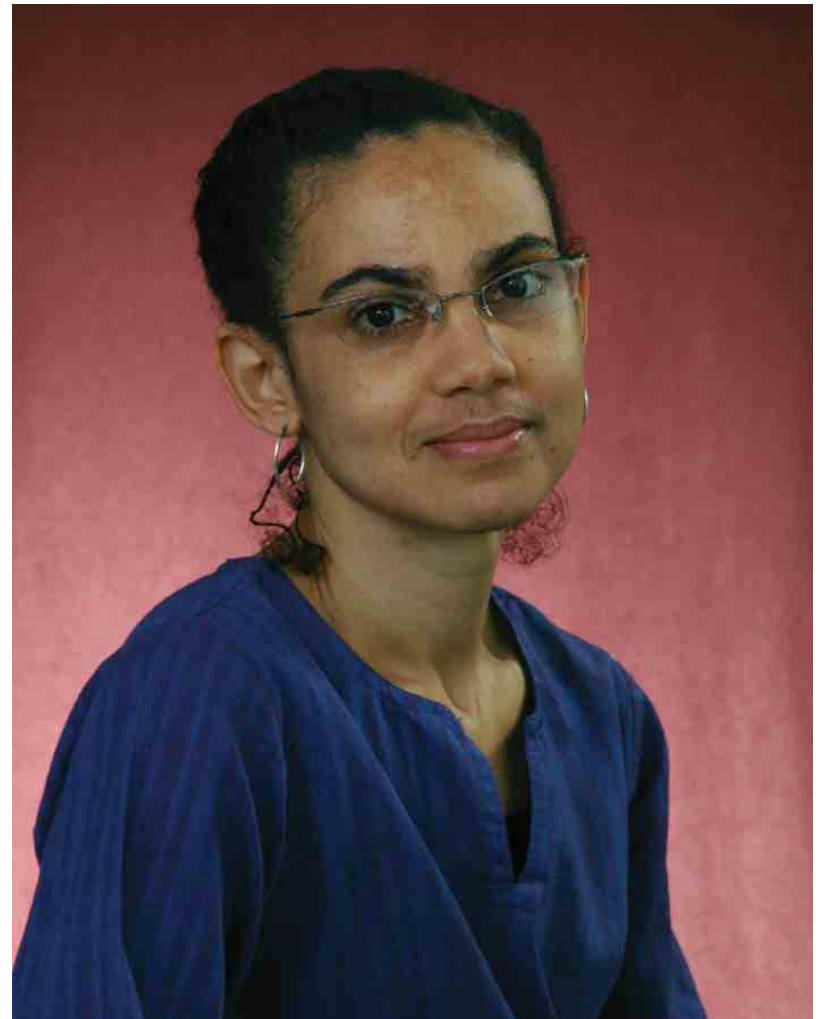
“

الثقافات وولائها لتقاليد الإيبو وإحساسها غير الخجول لنهجها الأميركية. وصف الناقد تي. ندوكا ديوانها "امرأة، أنا" بأنه "ترحال لا نهاية له. يتسم بالهدوء والوقار، ينقب، يسعى ولكنه ذو دوي. يحفل الهواء بأسئلة بلا أجوبة بيد أن معرفة تسود بأن الخير لا يزال في الطريق. إنه شعر التناقضات، معتزل بمد يده إلى الآخرين، يمسننا ومع ذلك نجد مكموحاً كبحاً".

وعلى العكس من لوحات أوديتشوكو التي تدمج قطعاً من الإرث النيجيري العتيق، تصطبغ قصصها بصبغة معاصرة مصورة كفاها لنيجيريات اليوم ومسلطة الضوء على موضوعي الاغتراب والخيانة. ولو أن فننا ينير المساحات وحالات الصمت، فقصصها تُرسل ضجيجاً يصم الأذان ويقوض أركان العلاقات الإنسانية. رشحت قصتها الأشهر "الحافلة الليلية" لجائزة كين للكتاب الأفارقة وعُدها كتاب المختارات القصصية "أفضل القصص القصيرة الأميركية 2007" واحدة من أفضل مائة قصة ظهرت في المجالات الأميركية عام 2006.

قد يفتن المطلعين على فن أوديتشوكو البصري قدر من الصدمة عند قراءة "الحافلة الليلية"، فالحكاية خالية من أوقاس رقيقة وحالات طمانينة منحفظة. تلمتهم السطور الأولى بجو قاس ثقيل الوطأة، بل وباعت على الاختناق في بعض الأحيان: "مدت أولوما ذراعها إلى الحقيبة، مست يد الضابط صدرها برفق. كشف فمّه عن ابتسامة خاطفة، فملات حمرة لسانه الباهتة فجوة تتوسط سنتيه الأماميتين ونبضت كحيوان حي".

"توردت وجنتاها وهي تقاوم رغبة ملحة في ضربه، تتابعته موجة تنم عن التذمر من مؤخرة الطابور، وخرج الناس عن الطابور



أدا أوديتشوكو: ورثت أكثر من ثقافة ولا تخلج بدهويتها الأميركية



هنريتا روز إينيس: افتتحت دربا جديدة في الأدب النسوي الأفريقي

ليرشقوا أولوما بنظراتهم. أطرقت رأسها. غص الهواء بالعالي من الاحتجاجات. وصاح بضعة أشخاص، "بي-بي وومان (أيتها الحقيرة)" "أشاوو (يا عاهرة)" "يقال إنك عملتها معه". احمر وجه أولوما من جراء الإساءة وعمت السخونة وجهها".

الحافلة الليلية

يتتبع السرد شابة نيجيرية اسمها أولوما ترتحل من جنوب شرق نيجيريا إلى مدينة لاجوس، يحيق بها رجال يسخرون منها ويسرقونها وينتهكونها. تكاد كل هذه المشقة من أجل حبيبها موناي الذي إقنعها بالانضمام إليه. وعندما يحضر أخيراً ملتغماً بما أسماه الروائي الفرنسي جان جينيه في سياق آخر "بنشوة الخيانة"، سوف تقدم إليها الوقائع التالية سبباً جوهرياً للريبة، ليس فقط في الرجل، بل في إنسانية البشر.

إن "الحافلة الليلية" قصة سوداء غاية في السواد، بطلتها في حالة من القلق الشديد منذ البداية وحتى النهاية، كل من حولها إما لا يبالي بها أو يهددها بالخطر. حين سألت الصحفية جيني روثينج جريبتس أوديتشوكو إن كانت القصة تعليقاً على حالة النيجيريات المعاصرات، ردت عليها، "بمعنى ما، أجل. ففي السنوات العديدة الماضية، منذ بدأ في الواقع الحكام العسكريون يهيمنون على البلد، تفاقم مناخ الشك المحيط بالنيجيرية العادية وما يجابهها في حياتها اليومية تفاقماً مستفحلاً".

وبالرغم من أن القصة لا تعالج الاضطرابات السياسية معالجة مباشرة وتنتهي بحادثة اغتصاب جماعية دون شرح لما سيحدث، تتابع أحداثها في جو من الفوضى والخوف لتعكس شيئاً مما لا يتناهى إلى المرء دوماً عن جوانب الحرب وضحاياها: ألا وهو تأثير الحرب على العائلات وما تفعله حقاً بالفرد العادي، بالإنسان فينا.

صور الاضطراب

مهّدت مواطنة جنوب أفريقيا هنريتا روز-إينيس (1971) لسبيل مجدد سلكه أدب جنوب أفريقيا، "أدب يتعامل مع عالم النفس الداخلي باعتباره محور التركيز الأساسي"، وفقاً للناقد الأسترالي توني موفيت. لا تعتقد أنها تحيد عن روح العصر، إذ تقول إن "الثقافة الشعبية تنزع إلى خلق صور تصف الدمار الشامل للعالم". دمار صورته في أشهر قصصها "سُم" الفائزة بمسابقة "إتش إس بي سي/بين" وجائزة كين لأفضل قصة مكتوبة بالإنكليزية بقلم كاتب أو كاتبة من أفريقيا.

وصفت جود كيلي، رئيسة لجنة تحكيم جائزة كين، قصة "سُم" بأنها "استعارة غريبة تجرد القراء من إحساسهم بالزمان والمكان، استعارة لفوات الأوان. ثمة شيء ينطلق نحو سيدمرك. وظف السرد مشاهد بلاغية دفعت القصة قدماً، وأظهر

عيوناً نعسانة لأناس يقفون على طرفها. إن مغادرة السيارة بمثابة تفسّخ، اندماج في ذلك العالم المتبدل. إلى أي مدى تقوى على المشي، يأتي حال، قبل أن يُزل الضعف قدمها؛ قبل أن يغلظ الهواء ويستحيل إلى جبل عجيب مخيف، يستحيل الخوض فيه، التنفس فيه؟".

ترسم "سُم" برؤيتها لدمار العالم جنوب أفريقيا الحافلة بأطراف الاستقطاب وهي تستجيب لكارثة محلية. لا تتعلق بالانفجار بقدر ما تنم عن انهيار فئات اجتماعية بائدة وسمت كيب تاون في يوم من الأيام، بكل ما حوته من قطاعات متنافرة عرقياً وطبقياً، وامرأة تائهة مشردة وسط هذا التناثر.

البداي أن روز-إينيس واعية بما اتخذته قصتها من منحى، إذ قالت في أحد حواراتها الصحافية إن: "الناس في وقت الأزمة لا بد أن يعقدوا روابط جديدة غير أن لين عاجزة عن الحركة. تخفق في أن تندمج مع بلد، في أن تخطو إلى ما وراء حدود معرفتها. لم أشرع قط في الكتابة ببرنامج سياسي واع وإن لم أرغب أبداً في أن يظنني القارئ "لا سياسية". وأثناء الكتابة اتضح أن القصة لا تخوض في الحقيقة في كارثة بيئية، وسعدت أنها طورت وجهة نظر مجازية".

لا يمكن بأي حال من الأحوال سحب أدب أوديتشوكو وروز-إينيس إلى بساط التعميم الارتجالي في خضم نظرتنا إلى حالة الأدب النسوي الأفريقي. ولكن بمقدورنا أن نسلم بأن أعظم ما يطغى عليه هو ميل بطالته إلى التحرر من خلال محو كل شيء -شخصي أو قومي- والبدء من جديد، وصور مرئية تستشعر الاتصال بوجودهما الأنثوي، وما أدهما إلا استيعاب لماهية هذه الصلات وتبيين الأسباب الكامنة وراء معناها.

يلفه كذلك إنصات إلى الذات الأنثوية، لا يشجب الرجل باعتباره رجلاً، وإنما ينبئ بما لا يدع مجالاً للشك عن اضطراب قومي في نصوص موجزة تلفها الألغاز. لا يحسر عن الواقع بأكمله عامداً وإن يدعي التعبير عن أفريقيا "الجديدة".

إنه أدب ينقُر على وتر القلق الأعظم السائد على وجه الأرض متخذاً امرأة القارة الأفريقية مثلاً ونموذجاً.

”

لا يمكن بأي حال من الأحوال سحب أدب أوديتشوكو وروز-إينيس إلى بساط التعميم الارتجالي في خضم نظرتنا إلى حالة الأدب النسوي الأفريقي

“

”

مهّدت الكاتبة الجنوب أفريقية هنريتا روز إينيس السبيل لأدب جنوب أفريقي جديد يتعامل مع عالم النفس الداخلي باعتباره محور التركيز الأساسي

“

نضجاً غاية في الحدة والندرة وذكاء شعرياً يتحلّى بالمهارة والتأثير في الوقت نفسه. إنه الأدب في أروع حالاته".

يضطر أهل مدينة كيب تاون في "سُم" إلى الرحيل في أعقاب كارثة كيميائية فتبعث صور فرارهم الاضطراب والهلع. وبينما يتعالى في الخلفية جبل تيبيل ماوتن وتغشاها السحب السامة عن الأنظار، يتأخر البعض في الهروب، يلم بهم العراء والياس ويَجبر متعدو الأعراق في النهاية على التعامل مع بعضهم البعض. وهنا تكشف ملاحظات البطلة لين حول التفاعل بين المنتظرين في محطة بنزين والتحالقات غير المتوقعة بين المواطن الأبيض وغيره الأسود عما نزل بمجتمع جنوب أفريقيا من تحولات أثناء سنوات ما بعد إلغاء الفصل العنصري.

تتوخى المؤلفة ألا ترسم بطلة نادرة المثال أو بطلة بالمعنى المبتذل، فهي نسخة من أي جنوب أفريقية: امرأة من الطبقة المتوسطة في العقد الرابع من العمر "ضلت طريقها". تفضل لين في التكيف مع متغيرات العالم وتنتهي جالسة تاكل رقائق البطاطس في مشهد من الإنصاف وصفه بالمستفز على حين يفر الآخرون بجلدهم. ولعل المُعبر الأمثل عن حياتها هو جملة المفكر الروسي ألكسندر هيرزن في كتابه "ماضي وخواتم"، "سلسلة من الأوهام البصرية والحاجات الزائفة والأحاسيس المتخيلة".

أوقات الأرملة

لا يسع لين اتباع طرقها القديمة، طرق ترمز إلى كيب تاون الواقعة عندئذ تحت تهديد العنصرية المجتمعية، لا القانونية، لكنها ليست مستعدة تمام الاستعداد لاتخاذ خطوة نحو الواقع الأرحب للبلاد بما يضمه من أخطار وفرص. يقول الصوت الراوي، "وفي خلال كل ما قضته من سنوات وهي تطوي الطرق بسرعة ما بعدها سرعة، كيب تاون، جوهانسبرج، ديربان، لم تتوقف مرة قط عند موضع عشوائي لتسير في المَرَج. ولم تصنع ذلك؛ كانت الطرق السريعة دروبا تخترق تضاريس بُنية ورمادية يتعذر سبر غورها، صورة ضبابية زائلة لا يلمح منها المرء إلا